يقول ديكارت:

لقد درست قليلًا، وأنا في سني الحداثة[1]، من بين أقسام الفلسفة المنطق، ومن بين أقسام الرياضيات التحليلَ الهندسي والجبرَ، وهي ثلاثة فنون أو علوم خيّل إليَّ أنها ستمدني بشيء من العون للوصول إلى مطلبي. ولكنني عندما اختبرتها تبيّن لي، فميا يتعلق بالمنطق، أن أقيسته وأكثر تعاليمه[2] الأخرى لا تنفعنا في تعلّم الأمور بقدر ما تعيننا على أن نشرح لغيرنا من الناس ما نعرفه منها، أو هي كصناعة لول[3] تعيننا على الكلام دون تفكير عن الأشياء التي نجهلها. ومع أن هذا العلم يشتمل في الحقيقة على كثير من القواعد الصحيحة والمفيدة[4]، فإن فيه أيضًا قواعد أخرى كثيرة ضارّة وزائدة. وهي مختلطة بالأولى، بحيث يصعب فصلها عنها، كما يصعب استخراج تمثال ديانا أو مينيرفا من قطعة من المرمر لم تنحت بعد. ثم أنه فيما يختص بتحليل القدماء[5]، وبعلم الجبر عند المحدثين[6]، ففضلًا عن انهما لا يشتملان إلاّ على أمور مجرّدة جدًّا، وليس لهما كما يبدو أي استعمال، فإنّ الأول مقصور دائمًا على ملاحظة الأشكال، لا يستطيع أن يمرّن الذهن دون أن يتعب الخيال. أما الثاني فإنه مقيّد بقواعد وأرقام جعلت منه فنًّا مبهمًا وغامضًا يشوّش العقل، بدلًا من أن يكون علمًا يثقفه. هذا ما حملني على التفكير في وجوب البحث عن طريقة أخرى تجمع بين مزايا هذه العلوم الثلاثة، وتكون خالية من عيوبها. وكما أن كثرة القوانين تهيئ في الأغلب سُبُل الرذيلة، بحيث تكون الدولة أحسن نظامًا عندما تكون قوانيها أقلّ عددًا، ويكون الناس أكثرَ مراعاة لها، فكذلك رأيت أنه، بدلًا من هذا العدد الكبير من القواعد التي يتألف منها المنطق، يمكنني أن أكتفي بالقواعد الأربع الآتية، شريطة أن أعزم عزمًا صادقًا[1] وثابتًا على أن لا أخلّ مرةً واحدةً بمراعاتها.

الأولى[2]: ان لا أتلقى على الإطلاق شيئًا على أنه حق ما لم أتبيّن بالبداهة أنه كذلك، أي أن أُعْنَى بتجنّب التعجّل والتشبث بالأحكام السابقة[3]، وأن لا أدخل في أحكامي إلاّ ما يتمثّل لعقلي في وضوح وتميّز[4] لا يكون لديّ معهما أيّ مجال لوضعه موضع الشكّ.

والثانية: أن أقسم كل واحدة من المعضلات التي أبحثها إلى عدد من الأجزاء الممكنة واللازمة لحلها على أحسن وجه[1].

والثالثة[2]: أن أرتب أفكاري، فأبدأ بأبسط الأمور وأيسرها معرفة[3]، وأتدرج في الصعود شيئًا فشيئًا حتى أصل إلى معرفة أكثر الأمور تركيبًا[4]، بل أن أفرض ترتيبًا بين الأمور التي لا يسبق بعضها بعضًا بالطبع.

والأخيرة: أن أقوم في جميع الأحوال بإحصاءات كاملة ومراجعات عامة تجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئًا[5].

المصدر: رينه ديكارت، **مقالة الطريقة لحسن قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم**، ترجمة وتقديم جميل صبيبا، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، ط. 3، بيروت، 2016، صص. 100- 104.